مقاربة المجتمع التّراحميّ في القرآن الكريم

طلال عتريسي*

قدَّمت النّظريّات الفلسفيّة والاجتماعيّة، عبر الأزمان والحضارات، تصوّرات عدّة حول الكَوْن والطّبيعة والخالِق، وحول علاقات الإنسان مع الغيب ومع نفسه ومع الآخرين.

وقد اختلفت هذه النّظريّات استنادًا إلى مرجعيَّتَيْن: الأولى؛ مرجعيّة المجتمع الذي عاش فيه هذا الفيلسوف أو المفكّر، والذي تأثَّر بما يحصل فيه من مشكلات، وما يجري فيه من تحوّلات. والثّانية؛ العقيدة الدّينيّة أو غير الدّينيّة التي يحملها وينظر من خلالها إلى الوجود وإلى الخالق وإلى باقي الموجودات.

ولذلك، كانت النّظرة إلى المجتمع في قلب هذه التّصوّرات الفلسفيّة الواسعة والمتداخلة، بل رُبَّما كانت من أهمّ مرتكزاتها النّظريّة وانعكاساتها التّطبيقيّة في علاقات الأفراد مع بعضهم ومع أنفسهم ومع الطّبيعة. وقد شغلت علاقة الفرد بالمجتمع هؤلاء المفكّرين، وطرحوا مبكّرًا الأسئلة حول أولويّة الفرد أم أولويّة المجتمع؛ بمعنى من يسبق الآخر في التّشكّل، ومن يؤثّر في الآخر، إلى غير ذلك من أسئلة لا تزال إلى اليوم متداولة بين علماء الاجتماع. وقد يكون سبب الاستمرار في طرح مثل هذه الأسئلة، ذلك المسار الفكريّ الغربيّ الذي ذهب بعيدًا في تعظيم أنا الفرد، لتحريره من سطوة المجتمع.

---

* أستاذ علم الاجتماع، ورئيس تحرير مجلّة جامعة المعارف، ومدير مركز أبحاث العلوم الإنسانية والدينية في جامعة المعارف.

لـن يسـتعيد هـذا البحـث النّقـاش الـذي لـم ينتـهِ لغايـة اليـوم حـول مَـن لـه الأصالـة الفـرد أم المجتمـع، أو حـول مـدى حرّيّـة الفـرد في ظـلِّ الضّوابـط المجتمعيّـة، أو كيـف يحفـظ الفـرد خصوصيّتـه وينسـجم فـي الوقـت نفسـه مـع القيـم العامّـة المشـتركة فـي المجتمـع الـذي يعيـش فيـه. فـإذا كان المجتمـع مجموعـة أفـراد، فـإنَّ هـذا لا يلغـي خصوصيّـة الفـرد ودوره الـذي قـد يكـون، في بعـض الأحيـان، محـرّكًا لمجتمـع بأكمله، كمـا هـو دور الأنبيـاء أو الرُّسُـل، أو بعـض قـادة الثّـورات أو المفكّريـن، ممَّـن أثّـروا بشـكلٍ كبيـر في حركـة التّغييـر في مجتمعاتهـم. كمـا أنَّ أهمّيّـة مثـل هـؤلاء الأفـراد لـن تتحقَّـقَ إلَّا بمقـدار مـا تؤثّـر أفكارهـم في مجتمعاتهـم، أو حتّـى في مجتمعـات أخـرى.

بمعنـى أنَّ الفـرد علـى الرّغـم مـن اسـتثنائيّته يحتـاج إلـى أفـراد (مجتمـع) ينقـل إليهم أفكاره، بحيـث تكـون العلاقـة هـي علاقـة تـوازن بيـن أدوار كلّ مِـن الفـرد والمجتمـع؛ لأنَّ مـا هـو متوقَّـع مـن الفـرد، خصوصًـا عندمـا يكـون دوره أو فكره اسـتثنائيًّا، هـو كيفيّة تأثيـر هـذا الفكـر علـى المجتمـع، سـواء في فهـم مـا يجـري فيـه، أو مِـن أجـل تغييـره نحـو الأفضـل. وهـذا مـا سـيتبيَّن عندمـا نتنـاول في بحثنـا هـذا المنظـور القرآنـيّ للمجتمـع، وطبيعـة العلاقـات بيـن أفـراده، وترتيـب أولويّـة هـذه العلاقـات، والتـي يتحمَّـل فيهـا الفـرد مسـؤوليّة أعمالـه بشـكلٍ مسـتقلّ عـن المجتمـع، لكـنَّ عملـه، في الوقـت نفسـه، يجـب أن يكـون في خدمـة المجتمـع (العمـل الصّالـح).

إنَّ أوَّل خليّـة إنسـانيّة تشـكّلت منـذ وجـود الإنسـان بحسـب كلّ الرّوايـات الدّينيّـة وحتّـى الأنتروبولوجيّـة هـي الأُسـرة التـي بـدأت بزوجَيْـن (آدم وحـواء)، بغـضّ النّظـر عـن الاختـلاف في روايـة وجودهمـا وخلقهمـا بيـن الكتـب السّـماويّة؛ مثـل خلق حواء بشـكلٍ مسـتقلّ كمـا خُلـق آدم، بحسـب القـرآن، أم أنَّهـا خُلقـت مـن ضلـع آدم، كمـا يقـول التّـوراة.

المهـمّ، أنَّ أوّل خليّـة تأسَّسـت هـي خليّـة الزّوجيّـة التي سـتكون نواة تشـكّل المجتمع. مـا يعنـي مـن وجهـة النّظـر هـذه، أنَّ المجتمـع لا يمكـن أن يكـون فقـط مجموعـة مـن الأفـراد، بـل هـو في الوقـت نفسـه وجـود هـؤلاء الأفـراد في مُنتظـم اجتماعـيّ. وهـذا مـا سـتصبح عليـه المجتمعـات لاحقًـا عبـر تجاربهـا الطّويلـة، بحيـث سـيكون الأفـراد بدايـة في منتظـم الأُسـرة، ثـمَّ في منتظـم جغرافـيّ، أو سياسـيّ، أو تعليمـيّ، أو دينـيّ، أو قبائلـيّ، أو عرقـيّ، أو غيـره مـن الانتمـاءات التـي عرفتهـا المجتمعـات الإنسـانيّة عبـر تاريخهـا وتحوّلاتها.

وسـوف نلاحـظ، أنَّ العلاقـات التـي يؤكّـد القـرآن الكريـم علـى تنظيمهـا وترتيـب

أولويّاتها هي أولويّات أُسريّة، والتي رُبَّما تعود إلى أولويّة الخليّة الأسريّة في المجتمع الإنسانيّ، لينتقل بعدها إلى العلاقات الاجتماعيّة بمستوياتها المختلفة، الاقتصاديّة، أو الإداريّة، أو التّربويّة، أو غيرها ممَّا يتعلّق بحياة الأفراد وعلاقاتهم في الأُطُر الاجتماعيّة التي يعيشون فيها.

إنَّ المجتمع المقصود في هذا البحث من المنظور القرآنيّ، هو المجتمع الذي يتأسَّس على البناء الأُسريّ، والذي تنتظم فيه العلاقات بين أفراده على أولويّة القِيَم الأخلاقيّة والعدالة الإنسانيّة. وهذا ما لن نجده عمليًّا في أيٍّ مِن نظريّات علم الاجتماع الغربيّة التي اكتفت بوصف المجتمع، وبكيفيّة تشكّله، وما يجري فيه من صراع أو تناقض بين فردانيّة الإنسان ورغباته وأهوائه، وضغوط المجتمع في عاداته وتقاليده، من دون أن تُحدّد هذه النّظريّات ما ينبغي أن تكون عليه هذه العلاقات، ومن دون أن تُشير إلى ما هو صحيح ومقبول، وما هو غير ذلك كما يفعل القرآن الكريم، بل ستكتفي بالوصف فقط من دون أيّ تدخل.

وستكون هذه منهجيّة البحث التي سيعتمدها علم الاجتماع والعلوم الإنسانيّة الغربيّة في فهم المجتمع ودراسته. ويعود أمر هذه المنهجيّة إلى تلك المرحلة مِن نشأة علم الاجتماع الغربيّ التي عَدَّ فيها نفسه محايدًا وموضوعيًّا، ليس فقط تُجاه ما يجري في المجتمع، بل وحتّى في كيفيّة دراسته التي يجب أن تُشبه ما يجري في مختبرات العلوم الطّبيعيّة التي لا يتعاطف فيها الباحث مع المادّة التي يجري عليها الاختبار، ولا مع التّحوّلات التي تتعرَّض لها هذه المادّة.

لم يكن تقليد «الموضوعيّة» و«الحياد» في الدّراسات الاجتماعيّة سوى تبعيّة تامّة لمنطق المختبر الذي اعتمدت عليه الثّورة العلميّة التي عرفتها أوروبّا في عصر النّهضة، عندما كان هذا المنطق مثابة إعلان تسيّد العقل وتهميش الدِّين، وانتقال المعرفة في الوقت نفسه إلى التّجريب دون سواه، ونفي أيّ مصدر أو تأثير غيبيّ لأيّ معرفة حتّى تلك المتعلّقة بالإنسان وبعلاقاته ونوازعه ورغباته ومشاعره ومخاوفه.

وهذه نقطة افتراق منهجيّة عميقة عمَّا يتطلَّع إليه القرآن الكريم، الذي لا يكتفي بوصف سلوك الأفراد أو الجماعات (كما يفعل علم الاجتماع)، بل ينتقل إلى ما يجب؛ ليُحدِّد كيف يُفترض أن تكون العلاقات، سواء بين أفراد الأُسرة، أو بين أفراد المجتمع. والقرآن بهذا المعنى ليس موضوعيًّا ولا محايدًا، بل يطلب من النّاس ما ينبغي عليهم أن يقوموا به، ويذمّ سلوكيّات معيّنة، ويمتدح غيرها، في

الوقت الذي يصف فيه أفعال أفراد بالنّفاق أو الخبث، في مقابل أوصاف أخرى للطّيّبين والطّيّبات وللعمل الصّالح.

إنَّ القرآن يُعلِن ما يريده من المجتمع، وخشيته على المصير الذي قد يذهب إليه بعض النّاس. ولذلك، يطلب منهم ما ينبغي أن يبتعدوا عنه، وما يعدّه أفضل لأنفسهم، في حين لا يعبأ مؤسِّسو علم الاجتماع بذلك كلّه. بل سيكون هدف هذا العلم منذ تأسيسه، بالإضافة إلى تقليد منهجيّة العلوم الطّبيعيّة في التّجريب، فَهْم الإنسان وتفسير سلوكه، وتوقّع ما يمكن أن يقوم به، لضبط هذا السّلوك والسّيطرة عليه، على غرار الرّغبة في السّيطرة على الطّبيعة. وستكون هذه المنهجيّة، أحد أهمّ أسباب الأزمة التي سيعيشها لاحقًا علم الاجتماع، والعلوم الإنسانيّة التي أنتجها الغرب منذ قرنَيْن[1].

رُبَّما يعود هذا الاختلاف في منهجيّة المعرفة الاجتماعيّة بين حياديّة ووصفيّة علم الاجتماع الغربيّ، وتدخُّل الرّؤية الدّينيّة القرآنيّة وعدم حياديّتها، إلى الأهداف التي جاء من أجلها، أو تأسَّس بسببها علم الاجتماع، وإلى الأهداف التي جاء من أجلها أو أراد الدّين تحقيقها.

ذلك يعني، أنَّ الاختلاف في هذا السّياق لن يكون له علاقة بتقليد علم الاجتماع لمنهج البحث التّجريبيّ، بل بتباين الأهداف بين عِلم يريد أن يؤسِّس «دين جديد» للمجتمع الغربيّ يستعيد من خلاله تنظيم هذا المجتمع، كما ادَّعى «أوغست كونت» (Auguste Comte)، (فيزياء اجتماعيّة)[2]، ودين في خدمة البشريّة، يريد أنْ يُحقِّق التّراحم بين الأفراد والجماعات ويأخذهم إلى الكمالات المعنويّة والإنسانيّة (خلافة الإنسان). في حين لم يكن مثل هذا الهدف أصلًا هو ما يريده، أو حتّى يفكر فيه علماء الاجتماع، بل رُبَّما على العكس من ذلك، أراد واضعو هذا العلم أن يبتعدوا عن كلّ ما يمتّ إلى مثل هذه التّطلُّعات الدّينيّة أو الأخلاقيّة التي تنتمي إلى الدّين الذي انقلبوا عليه، وعدّوا هذا الانقلاب مثابة انتقال إلى الحداثة والتّقدُّم والعقلانيّة.

1- ألفن غولدنر، الأزمة القادمة لعلم الاجتماع الغربيّ، لا ط، القاهرة، المجلس الأعلى للثّقافة، 2009م.

2- كابان فيليب، علم الاجتماع من النّظريّات الكبرى إلى الشّؤون اليوميّة، ط1، سوريا، دار الفرقد، 2010م، ص 26.

الرّحمة الإلهيّة

«الرّحمن الرّحيم»، هو أوّل ما يصف به نفسه من أوجد الوجود، وخالق البشر والأكوان، ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا ﴾[1]، و﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[2]، و﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾[3].

هكذا تبدأ سورة الفاتحة ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾[4]، بحيث يكون أوّل ما يَجذب التّعرُّف إلى الذّات الإلهيّة هو أبرز صفاتها، التي هي الرّحمة والرّحمانيّة، والتي لن تتوقّف عندها، بل ستنتقل بدورها إلى الرّسول الذي اختارته هذه الذّات رسولًا للعالَمين ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾[5].

ومِنَ اللّافت في هذا التّرابط الرّحمانيّ مِنَ المرسِل إلى الرّسول، أنَّ الرّسالة (القرآن الكريم) تختار الأُسرة، قبل أيِّ تشكّل اجتماعيّ آخر، في استكمال هذا التّسلسل التّراحميّ، ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾[6]؛ لتنتقل بعدها إلى المجتمع الأوسع «مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم»[7]. ما يعني أنَّ المجتمع التّراحميّ المنشود يبدأ في الأُسرة، مع (صلة الرّحم) لكنَّه لا يمكن أن ينفصل في تحقّقه هذا عن العلاقة الرّبّانيّة، ولا عن العلاقة مع رسول اللّه.

وإذا انفصل المجتمع لأيّ سبب من الأسباب عن هذه العلاقات، خصوصًا عن البُعد الإلهيّ (اللّه ورسوله) فلن يكون تراحميًّا، بل سيتحوَّل عمليًّا إلى مجتمع يخلو من الرّحمة، يكون فيه البقاء للأقوى، وإلى مجتمع الصّراع والغلبة، وإلى الأقوى يلتهم الأضعف، وإلى أولويّة الفرد وحرِّيّته على أيِّ قيمة أُسريّة أو تراحميّة اجتماعيّة (الآخر هو الجحيم، كما يقول سارتر).

يستخدم القرآن في الإطار نفسه مصطلح «الإنسان»، وليس «الفرد» في مقابل

1- سورة يونس، الآية 5.

2- سورة الأعراف، الآية 158.

3- سورة الحديد، الآية 3.

4- سورة الفاتحة، الآية 1.

5- سورة الأنبياء، الآية 107.

6- سورة الرّوم، الآية 21.

7- محمّد الرّي شهريّ، ميزان الحكمة، ط1، بيروت، دار الحديث، 1416هـ ج 4، ص 2837.

(الآخر) الذي تأسّست عليه نظريّات الغرب الاجتماعيّة. فالإنسان هو «خليفة اللّه» بالنّسبة إلى القرآن الكريم، ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[1]، ويجب عليه عند قيامه بهذا الدّور أن يتّصف برحمانيّة اللّه ورسوله. فعندما يَطلب الأمر الإلهيّ برّ الوالدَيْن، أو صلة الرّحم، أو الإحسان والقول الحَسَن حتّى للجار البعيد، وخدمة النّاس... فلأنَّ هذا كلّه من صفات الرّحمة والرّحمانيّة الالهيّة.

وخلافة الإنسان الإلهيّة تكريم له ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾[2]، وهي «الأمانة» التي قبل أن يحملها، والتي تفرض عليه التّصرّف برحمانيّة تُجاه كلّ ما في هذا الكون، مِن الطّبيعة، إلى الإنسان، إلى باقي الكائنات. وستتجلّى هذه الرّحمانيّة في صلة الرّحم وفي الإحسان والقول الحَسَن، والإنفاق، والتّذلُّل للوالدين، وفي كثير من الآيات التي تحضّ على التّعامل بالرّحمة والحسنى مع الطّبيعة، وحتّى مع الحيوان. فاللّه تعالى هو ربّ الأرض وخيراتها، وربّ الإنسان والحيوان، وكلّ دابة تنتشر في أرجاء الكون الفسيح، وهذا يعني أنَّ خليفة اللّه في الأرض مستخلَفٌ على هذه الأشياء كلّها، ولا يستثنى من ذلك إدارة الحكم والسّياسة بين النّاس «بالحقّ» بما هو من صميم هذه الخلافة، كما جاء في الآية الكريمة: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾[3].

ومن المهمّ الإشارة إلى أنَّ «خلافة الإنسان»، في المنظور القرآنيّ، «هي حركة لا تتوقّف أبدًا؛ لأنّها متّجهة نحو المطلق، وليس نحو باقي الموجودات، بل من خلالهم، وأيّ هدف آخر لهذا المسار سوى المطلق ـ اللّه سبحانه وتعالى ـ سوف يكون هدفًا محدودًا، وتاليًا سوف يُجمّد الحركة ويوقف عمليّة النّموّ في خلافة الإنسان»[4]. ورُبَّما هذا ما يُفسّر الجمود الذي أصاب الحركة الإنسانيّة في التّجربة الغربيّة، التي اكتفت بالسّعي إلى الموجودات المحدودة، وتخلّت عن المطلق الذي هو اللّه سبحانه وتعالى.

ورُبَّما هذا الاكتفاء بما هو موجود، هو الذي جعل بعض المفكّرين الغربيّين

1- سورة البقرة، الآية 30.

2- سورة الإسراء، الآية 70.

3- سورة ص، الآية 26.

4- محمّد باقر الصّدر، خلافة الإنسان، بيروت، جمعيّة المعارف الاسلامية الثقافيّة، 2011م، ص 6.

يَعدّون «فقدان المعنى» هو ما آلَتْ إليه التّجربة الغربيّة، التي فقدت الثّوابت التي يحتاج إليها الإنسان والمجتمع للشّعور بالاستقرار، بعدما توقّف الوحي والنّصّ الدّينيّ عن منح الأمل واليقين، ما «خلق حداثة سائلة، مائعة وهشّة، ولم يعد يوجد مفهوم ثابت ومحدَّد، وبدأنا نسمع بنقد النّصّ، ونقد العقل، ونقد الهُويّة، ونقد المنطق، ونقد الخطاب، ونقد المقدَّس... ما خلق حالة من اللّايقين والشّكّ في كلّ شيء»[1].

وقد صار «المحلِّلون النّفسيّون يملؤون الفراغ الذي خلّفه الكهنة والقساوسة، مستخدمين أساليب علاجيّة في مواجهة إحساس عامّ بالهشاشة والعزلة، يمكن استغلاله والتّلاعب به بسهولة»[2].

إنَّ التّخلّي عن المطلق والتّعلُّق فقط بالموجودات، سيساهم بقوَّة في «فقدان المعنى»؛ لأنَّ هذا الهدف سيفقد معناه، ما أنْ يُحصل عليه[3]. ومثل هذه الأهداف التي اقتصرت على ما هو موجود، ومحدود، تُشبه ما كانت عليه المجتمعات الجاهليّة، التي «لا تنظر إلى الحياة إلّا من خلال شوطها القصير الذي ينتهي بالموت، ولا تُدرك ذاتَها ومتَعَها إلّا من خلال إشباع ما لدى الإنسان من غرائز وشهوات. وهي على هذا الأساس، تجد في المال، بوصفه مالًا، وفي تجميعه وادّخاره والتّنافس فيه الهدف الطّبيعيّ، الذي يضمن للإنسان القدرة على امتصاص أكبر قدر ممكن من إمكانات الحياة المادّيّة والخلود (النّسبيّ) فيها. ولعلَّ هؤلاء هُمْ مَن قصدهم القرآن الكريم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْأٓخِرَةِ﴾[4]»[5].

«الرّحمن الرّحيم»، كما تتوافق على ذلك معظم التّفاسير، صفتان مشتقّتان مِن الرّحمة، و«الرّحمن» أشدّ مبالغة من «رحيم» وزيادة المبنى تدلّ على كثرة المعنى، فهما صفتان لمعنى واحد هو «الرّحمة»؛ وتعني: الرِّقّة والعطف والحنوّ والمغفرة. و«الرّحمن» صيغة مبالغة تدلّ على الرّحمة الكثيرة المفاضة على المؤمن والكافر،

1- مراد واحك، من مثقّف الحداثة إلى مثقّف السّيولة عند «زيغمونت باومن»، مجلّة مقاربات فلسفيّة، جامعة خميس مليانة، الجزائر، مجلّد 11، العدد الأوّل، 2024م، ص 73-88.

2- موقع الجزيرة، شريف مراد، يحيا الفرد ويسقط المجتمع، المسيرة المظلمة للفردانيّة في الغرب، 27-8-2021م: https://aja.me/rgvu78.

3- Pierre Bourdieu, Questions de la sociologie, ed. de Minuit, Paris, 1984, p. 37.

4- سورة البقرة، الآية 86.

5- محمّد باقر الصّدر، خلافة الإنسان، ص 25.

وهي الرّحمة العامّة، ﴿ قُلۡ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّا ﴾[1]. وهو «الرّحيم» يُبيِّن لهم سبيل رحمته الخاصّة بالمؤمنين، ﴿ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ ﴾[2]، ﴿ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ﴾[3]، و﴿ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾[4].

فصفات اللّه تعالى وأخلاقه مِن العدل والعلم والقدرة والرّحمة... هي مؤشّرات للسّلوك في مجتمع الخلافة وأهداف للإنسان الخليفة، فقد جاء في الحديث الشّريف: «تشبَّهوا بأخلاق اللّه»[5].

الرّسول الرّحيم

إنَّ الرّسول، الذي اختاره اللّه سبحانه وتعالى لنقل رسالته ورحمانيّته، سيتَّصف بدوره بهذه الصّفات، وهذا منطقيّ وطبيعيّ، ولتأكيد عظمة الرّسول ستكون صفاته من سنخ صفات المرسِل. وهذا ما يؤكّده قول الباري عزَّ وجلّ: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾[6]، ﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ ﴾[7]، و﴿ لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾[8]، ويضيف إلى ذلك: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ﴾[9]. وها هو الرّسول نفسه، يؤكّد: «إنَّما بُعثت لأُتمِّم مكارم الأخلاق»[10]، وكذلك قوله: «أدَّبني ربِّي

1- سورة مريم، الآية 75.

2- سورة الأعراف، الآية 156.

3- سورة الأحزاب، الآية 43.

4- سورة التّوبة، الآية 117.

5- محمّد باقر الصّدر، الإسلام يقود الحياة، الإسلام يقود الحياة، طهران، وزارة الإرشاد الإسلاميّ، 1403هـ، ص 141.

6- سورة الأنبياء، الآية 107.

7- سورة آل عمران، الآية 159.

8- سورة التّوبة، الآية 128.

9- سورة القلم، الآية 4.

10- محمّد باقر المجلسيّ، بحار الأنوار الجامعة لدُرر أخبار الأئمّة الأطهار، ط3، بيروت، دار إحياء التراث العربيّ، 1983م، ج 68، ص 382.

فأحسَنَ تأديبي»[1]. ولا شكَّ في أنَّ لهذا السّبب: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾[2].

إنَّ الرّسول، وفاق الرّسالة التي يحملها والمرسِل (اللّه) الذي اصطفاه وأرسله، هو «رحمة للعالمين» أيّ للبشر كافّة؛ أي أنَّ محتوى الدِّين الذي يُبشّر به، ويدعو إليه هو الذي سيكون سبب هذه الرّحمة الإلهيّة للعالمين. وهي رحمة يتّصف بها مرسِل الرّسالة (اللّه سبحانه وتعالى) ورسوله إلى العالَمِين (محمّد ﷺ)، والرّسالة نفسها (الدِّين) الذي هو رحمة للعالَمِين.

ولقد كتب كثيرون عن الصّفات الإلهيّة، وعن صفات الرّسول الأكرم، والتي لا نحتاج إلى المزيد من التّفصيل حولها؛ لأنَّ هدف البحث هو تبيان طبيعة العلاقات التّراحميّة في المجتمع الذي ينشده القرآن الكريم، والتي لا تنفصل في جوهرها وأهدافها وتطلّعاتها عن الصّفات التّراحميّة الإلهيّة والنّبويّة.

الأُسرة التّراحميّة

لقد اختار القرآن الكريم الأُسرة، قبل أيِّ تشكُّل اجتماعيّ؛ ليجعل فيها «المودَّة والرّحمة»، قبل أنْ يطلب مثل ذلك من المكوّنات الاجتماعيّة المختلفة. والأُسرة، كما سبق وأشرنا، هي الخليّة الإنسانيّة الأُولى التي سيُبنى عليها المجتمع. ما يعني، أنَّ نواة تأسيس المجتمع في المنظور القرآنيّ هي قِيَم المودّة والرّحمة التي جُعلت في الأُسرة. ورُبَّما يعود جعل المودّة والرّحمة في الأُسرة تحديدًا، من دون ذكرها في أيِّ بنى إنسانيّة أو اجتماعيّة أخرى؛ لأنَّ الأُسرة في المنظور القرآنيّ، هي المكوّن الثّابت في الوجود الإنسانيّ، في حين أنَّ المكوّنات الأخرى الاجتماعيّة والسياسيّة والاقتصاديّة قد تكون متغيِّرة ومتحوّلة.

يتَّفق مع هذا المنطق الأُسريّ للتّأسيس الاجتماعيّ كلّ النّظريّات التي عرفتها الدّراسات الاجتماعيّة والتّربويّة والثّقافيّة، خصوصًا وأنَّه منطق ينسجم مع التّجارب الإنسانيّة التي عرفتها الحضارات على مرِّ العصور. لكن ما يستحقّ التّأمّل حول هذا الدّور الأُسريّ وتأثيراته المنطقيّة على المجتمع، ما تعرّضت له الأُسرة في التّجربة الغربيّة الحديثة وأدَّى إلى تهميش دورها، وتوهين وظائفها الاجتماعيّة،

1- محمّد باقر المجلسيّ، بحار الأنوار الجامعة لدُرر أخبار الأئمّة الأطهار، ج 16، ص 210.

2- سورة النّساء، الآية 80.

وتراجع تأثيراتها القيميّة التي انتقلت إلى المجتمع، لتتحوَّل الأُسرة بعد ذلك إلى مجرَّد متلقٍّ لما يجري في هذا المجتمع، بعدما كانت هي التي تُؤثّر فيه وتُمهّد لمَا سيكون عليه، كما كان حالها عبر تاريخ الحضارات والشّعوب.

والدّليل على ذلك، أنَّ موجة التّرويج للشّذوذ في الغرب، على سبيل المثال، لم تبدأ مِن الأُسرة، بل من مؤسّسات اجتماعيّة مختلفة فكريّة وسياسيّة وإعلاميّة وثقافيّة، لا بل كانت الأُسرة معارضة لهذا التّرويج بعدما فرضت السّياسات التّعليميّة والقوانين على أولياء الأمور تقبُّل تلقين الأطفال في المدارس مفهوم الشّذوذ، وحتّى منعتهم مِن الاعتراض على هذه السّياسات؛ أي أنَّ التّرويج للشّذوذ لم يبدأ على الإطلاق مِن الأُسرة لينتقل بعدها إلى المجتمع، بل العكس هو ما حصل.

لقد فقدت الأُسرة في التّجربة الغربيّة علاقة التّفاعل التي كانت موجودة عبر التّاريخ بينها وبين المجتمع، وتحوّلت إلى متلقٍّ للقِيَم التي تنتشر في المجتمع وتُنظّم العلاقات بين أفراده؛ مثل قِيَم التّنافس والغلبة والفردانيّة. وهي قِيَم الرّأسماليّة المتعطّشة للرّبح والنّفعيّة، ما أدّى بمرور الوقت إلى تهميش مكانة الأُسرة، وتراجع دورها وأهمّيّتها في المجتمعات الغربيّة.

وعلى الرّغم من أنَّ النّظريّات التّربويّة والاجتماعيّة تؤكّد حتّى لدى معظم المفكّرين الغربيّين على أهمّيّة الأُسرة ودورها في التّأسيس للقِيَم الاجتماعيّة، كما هو منطق الأمور الذي تسير عليه حياة الإنسان، فإنَّ ما جرى في مسار التّجربة الغربيّة وصل إلى الانقلاب على هذا المنطق الطّبيعيّ لمسار الأُسرة وتأثيراتها التّربويّة والاجتماعيّة. بحيث سيبلغ الأمر في هذه التّجربة أنَّ المؤسّسات المعنيّة من وزارات وهيئات تربويّة وثقافيّة، وحتّى سياسيّة، هي التي ستُحدِّد في أيِّ سنّ تكون العلاقات بين الجنسَيْن قانونيّة (من خارج إطار الزّواج)، ومتى يستطيع الأبناء مغادرة ذويهم، من دون أيّ سبب، وكيف يستطيع الطّفل الاتّصال بالشّرطة للاعتراض على طريقة تأديب والده أو والدته.

صلة الرّحم

تقوم الأُسرة على ما يسمّيه القرآن «صلة الرّحم»، التي لا تقتصر على الصّلة المباشرة بين الآباء والأبناء، بل تمتد حتى إلى الأقارب الأبعدين، بحيث تصبح هذه الصّلة سلسلة ممتدّة من العلاقات التي يحرص القرآن فيها على تقديم العون

والمساعدة والإنفاق على من يحتاج منهم، وحتّى على مجرَّد السؤال عن أحوالهم والاطمئنان عليهم.

لكن ما قد يكون لافتًا ومستغربًا هو تلك المكانة العالية التي يعطيها القرآن الكريم لصلة الرّحم، فهي لا تنفصل عن العبادة والتّوحيد، ولا عن الإحسان إلى الوالدَيْن (الأُسرة) لتتوسَّع إلى ذي القربى، كما جاء في سورة النساء: ﴿ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ﴾[1]، وكما في قول النّبيّ ﷺ: «الرّحم متعلّقة بالعرش تقول: مَن وَصَلَنِي وَصَلَهُ اللّه، ومَنْ قَطَعَنِي قَطَعَهُ اللّه».

ولا يكتفي القرآن بمثل هذا التّرتيب لأهمِّيّة صلة الرّحم ومكانتها، والتّأكيد على أنَّ ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۗ ﴾[2]، بل يُهدِّد في بعض آياته مَن يقطع هذه الصّلة، بـ«سوء الحساب»، كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ﴾[3].

ويعدّ قطيعة الرّحم في الوقت نفسه «إفسادًا في الأرض»، كما جاء في كثير من آيات القرآن الكريم، وفي الأحاديث النّبويّة الشّريفة: ﴿ فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ﴾[4]. وكذلك: ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾.[5]

والمُفسد في الأرض هو مَن عصى اللّه في الأرض، والإفساد هو نشر بذور التّفرقة والعداوة والبغضاء بين النّاس، وهو الاعتداء على الأموال والأرواح وإخلال الأمن. وقد رتَّبَ اللّه على الفساد عقوبة عظيمة، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفۡسِدُونَ ﴾[6]. فقطيعة الرّحم بهذا المعنى هي سببٌ من أسباب الخسران، واستحقاق العقوبة،

1- سورة النّساء، الآية 36.

2- سورة الأنفال، الآية 75.

3- سورة الرّعد، الآية 21.

4- سورة محمّد، الآية 22.

5- سورة البقرة، الآية 27.

6- سورة النّحل، الآية 88.

و«اللّعنة»، «ولهم سوء الدّار» وعدم نوال شيء من رحمة اللّه. ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾[1].

وقد يكون ثمّة تنوّع في آراء المفسّرين حول أنواع الإفساد ودرجاته ومخاطره، لكنّ ذلك كلّه لا يُقلِّل من القيمة العليا التي جعلها القرآن الكريم لصلة الرّحم، وللإفساد الذي رَبَطَ به قطع هذه الصّلة، واستحقاقه العقوبة والخسران والغضب الإلهيّ.

في الإطار نفسه من تعظيم صلة الرّحم، وبما يتجاوز العائد المباشر لمساعدة القريب من ذوي الأرحام، يربط القرآن وبشكلٍ لا يمكن أن يتوقّعه أيّ من مهندسِي العلاقات الاجتماعيّة، ولا أيّ مِن منظّري العلوم الاجتماعيّة، بين صلة الرّحم وتحسين الخُلُق، والتّوسعة في الرّزق، ودفع البلاء، وميتة السوء، وحتّى تأخير الأجل. فعن النّبيّ ﷺ: «مَنْ سرَّهُ أنْ يُمَدّ له في عمره، ويُوسَّع له في رزقه، ويدفع عنه ميتة السوء، فليتَّقِ اللّه وليصل رحمه». وكذلك، «صلة الأرحام تُزكي الأعمال وتُنمِّي الأموال، وتدفع البلوى، وتُيَسّر الحساب وتُنسئ في الأجل»[2]. وقال أيضًا: «صلة الرّحم تزيد في العمر، وتنفي الفقر»[3]. وعنه أيضًا: «مَن سَرّه أن يبسط له في رزقه، وينسأ له في أجله فليصِلْ رحمه»[4]. وأيضًا: «صلة الرّحم تهوّن الحساب وتقي ميتة السّوء»[5].

إنَّ مثل هذ الرّبط بين صلة الرّحم وسعة الرّزق، مثلًا، أو الزّيادة في العمر، أو نفي الفقر، أو تأخير الأجل والمدّ في العمر... لا يمكن أن يُفهم بأيٍّ مِن الأبعاد المادِّيّة أو حتّى الاجتماعيّة التي تتَّصل مباشرة بمساعدة الأقارب. ذلك أنَّ كلّ ما يشير إليه القرآن الكريم من تداعيات لصلة الرّحم يبدو أنَّها متعلّقة بالرّحمن مباشرة، كما جاء في قول النّبيّ ﷺ: «الرّحم متعلّقة بالعرش تقول: مَن وصلني وصله

1- سورة الرّعد، الآية 25.

2- محمد بن يعقوب الكلينيّ، الكافي، صحّحه وعلّق عليه عليّ أكبر الغفّاري، لا ط، طهران، دار الكتب الإسلاميّة، 1365هـ.ش، ج 2، ص 150.

3- محمّد الرّي شهري، ميزان الحكمة، ج 2، ص 1055.

4- محمّد باقر المجلسيّ، بحار الأنوار الجامعة لدُرر أخبار الأئمّة الأطهار، ج 71، ص 89.

5- محمّد الرّي شهري، مرجع سابق، ج 2، ص 1055.

اللّه، ومن قطعني قطعه اللّه»؛ أي أنّها من أنباء الغيب، ومن صفات «الرّحمن الرّحيم» الإلهيّة، وليست متعلّقة بالأبعاد المادِّيّة التي تفترضها النّظريّات في العلوم الاجتماعيّة، وسواها من العلوم الإنسانيّة.

وتعلّقها بالرّحمن الرّحيم القادر على كلِّ شيء، الذي أوجد كلّ شيء، والذي بيده ملكوت كلّ شيء، هو الذي يستطيع أن يجعل مِن صلة الرّحم التي هي من صفاته ما يشاء، فتكون سببًا للرّزق ولزيادة العمر، ولنفي الفقر، وحتّى أنّها تُهوّن الحساب.

ومثل هذه النّتائج لصلة الرّحم هي، طبعًا، خارج تصّور أيّ مِن النّظريّات الاجتماعيّة أو إدراكها، فهي قد اكتفت فقط بمناهج التّجريب، سواء في فهم الإنسان، أو في تفسير التّرابط المادِّيّ المباشَر بين ما يقوم به وما يؤدّي إليه من تفاعلات اجتماعيّة. فغياب البُعد الإلهيّ عن هذا المنهج في التّفكير هو الذي يجعله خارج أيّ تصوُّر رحمانيّ لمَا يمكن أن يكون لصلة الرّحم مِن أبعاد غير مادِّيّة وغير تجريبيّة.

برّ الوالدَيْن

المبدأ والمنطلق في صلة الرّحم، وفي تأسيس المجتمع التّراحميّ هو برّ الوالدَيْن، انطلاقًا من أنَّ أوّل خليّة إنسانيّة تأسَّست في الوجود هي الخليّة الزّوجيّة التي جعل فيها اللّه المودّة والرّحمة، بحيث تكون الأُسرة هي نواة المجتمع التّراحميّ. وسوف يستند هذا الأنموذج من التّراحم الأسريّ إلى مستويَيْن:

الأوّل، هو التّراحم بين الزّوجَيْن، ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾[1].

والثّاني، هو التّراحم المتبادل بين الآباء والأبناء.

وإذا كان من الطّبيعيّ أن يَرحم الوالدَيْن أبناءهم، فإنَّ العكس لن يكون كذلك بالضّرورة؛ أي أنَّ علاقة الأبناء بالآباء لن تكون تلقائيًّا علاقة تراحم. ولذلك، توجَّه القرآن الكريم إلى الأبناء لحضّهم على برِّ والديهم، بوصفه تعبيرًا عن التّراحم الذي يجب أن يتحقَّق في الأُسرة، بعدما جعل اللّه فيها المودّة والرّحمة بين الزّوجَيْن.

بهذا المعنى يُصبح بِرُّ الوالدَيْنِ من أعظم حقوق العباد التي أَمَرَ اللّه عزَّ وجلَّ برعايتها، حيث جعل هذا البرّ في المرتبة التي تَلِي حقَّه سبحانه في التّوحيد:

1- سورة الرّوم، الآية 21.

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾[1].

وقد أَمَرَ اللّه بالإحسان إلى الوالدَيْن، على أنْ يسبق ذلك التّوحيد وعدم الشّرك، وهما مُقدّمة صلة الرّحم الأوسع (ذي القربى). ﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾[2]؛ أي أنَّ صلة الرّحم هي علاقة عموديّة تبدأ بالتّوحيد، ثُمَّ تنزل إلى الإحسان إلى الوالدَيْن، لتصل إلى الإحسان لذي القربى.

ينطبق على برّ الوالدَيْن، من حيث تعظيم مكانته وارتباطه بالصّفات الرّحمانيّة الإلهيّة، ومن حيث الوعيد الذي يتهدَّد من يقطع هذ البرّ ما ينطبق تمامًا على صلة الرّحم؛ لأنَّ هذا البرّ هو أساس صلة الرّحم ومبتدؤها، ومن دونه لن يكون لأيّ صلة رحم اتّصال بالرّحمة الإلهيّة، التي أشار إليها سبحانه وتعالى؛ لأنَّ البرّ في الوقت نفسه هو التّقوى، ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ ﴾[3].

من اللّافت في حضِّ القرآن على برّ الوالدَيْن أن تبدأ الوصيّة بالإحسان إليهما معًا، قبل أن تنتقل إلى التّوجّه نحو الأُمّ بشكلٍ خاصّ، اعترافًا بجميل ما تحمّلته في أثناء الحمل والولادة، ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾[4].

وتتكرَّر مثل هذه التّوصيَة بالوالدَيْن، والأُمّ تحديدًا، في آيات عدَّة.

إلّا أنَّ القرآن الكريم ينتقل في بعض تلك الآيات إلى شرح كيفيّة تحقُّق هذا البرّ. فعلى الرّغم مِن أنَّ منطلق القرآن هو التّوحيد، وأنَّه يربط قبول كلّ ما يقوم به الإنسان بالتّوحيد وعدم الشّرك، ﴿ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾[5]، ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾[6]، إلّا أنَّه يُقدّم برّ الوالدَيْن على التّوحيد.

فإذا كان الوالدان مُشْرِكَيْن، مثلًا، فلا يجب طاعتهما، ولكن في الوقت نفسه، لا يجب التّعامل معهما على أساس هذا الشّرك؛ بل على أساس البرّ، الذي يفترض

1- سورة الإسراء، الآية 23.

2- سورة النّساء، الآية 36.

3- سورة البقرة، الآية 189.

4- سورة لقمان، الآية 14.

5- سورة الأنعام، الآية 151.

6- سورة الإسراء، الآية 23.

استمرار الإحسان إليهما ومصاحبتهما بالمعروف، وليس الابتعاد عنهما أو تحقيرهما أو إهانتهما بسبب شركهما.

﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾[1].

هذه المكانة العظيمة للوالدين التي بدأها القرآن الكريم بالرّبط بينها وبين عبادته، ﴿ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا ﴾[2]، لا تتوقّف فيها آياته عند طلب هذا الإحسان والمصاحبة بالمعروف، بل تذهب واقعيّة القرآن إلى ما سيجري للوالدَيْن عند التّقدُّم في العمر، من احتمال تعامُل الأبناء معهما كعبء لا يرغبان فيه.

لذلك، تتوجَّه الآية للابن بالأمر: ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ ﴾[3]، وهذا الأمر لا ينفصل عن أمر: ﴿ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ ﴾[4]. ويمنع القرآن حتّى التّلفُّظ بـ«أفٍّ»، وهي أقلّ ما يُعبّر به المرء عن الانزعاج. ليستكمل هذا الأمر بالنّهي عمَّا يمكن أن يكون الأسوأ، فلا ﴿ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا ﴾، ليُحدِّد بعدها مباشرة ما هو مطلوب: ﴿ قَوۡلٗا كَرِيمٗا ﴾[5]؛ أي أنَّ البرّ عند تقدُّم الوالدَيْن في العمر هو نهي عن التّلفُّظ، وهو عدم التّصرّف بما يُسيئ إليهما، وهو تاليًا الأمر بـ«القول الكريم».

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ﴾[6].

وقد يكون من المهمّ الإلفات إلى أنَّ الآية السّابقة تؤكّد على بلوغ الكِبَر «عندك»؛ ﴿ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ ﴾، وليس في أيِّ مكانٍ آخر؛ مثل المؤسّسات الرّعائيّة، أو الجمعيّات التي نعرفها في عالمنا، بعدما انتشرت في الغرب، وتحوَّلت إلى بديل عن «عندك» الأُسريّة.

1- سورة لقمان، الآية 15.

2- سورة البقرة، الآية 83.

3- سورة الإسراء، الآية 23.

4- سورة الإسراء، الآية 23.

5- سورة البقرة، الآية 83.

6- سورة الإسراء، الآية 23.

لا يتوقّف هذا التّكريم والتّعظيم للوالدَيْن على الأمر بعدم التّأفُّف أو الإساءة إليهما، بل تنتقل الآية نفسها إلى تكرار ما سبق مِن تقديم البرّ على التّوحيد، وذلك بتقديم الذّلّ للوالدَيْن على العزّة التي يأباها اللّه لرسوله وللمؤمنين. ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[1]، ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾[2].

فتطلب الآية من الابن التّذلُّل للوالدين بما هو تذلّل الرّحمة والتّراحم، لا تذلُّل الانكسار، أو الضّعف أمام الشّرك أو الطّاغوت. ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾[3].

على الرّغم من قول الرّسول الأكرم ﷺ: «لا ينبغي للمؤمن أن يذلّ نفسه»[4]، وقوله: «إنَّ اللّه فوَّض إلى المؤمن أمره كلّه ولم يُفوِّض إليه أن يكون ذليلًا»[5]؛ لأنَّ «جناح الذّلّ» تُجاه الوالدَيْن هو مِنَ الرّحمة التي يجب أن يتَّصف بها «خليفة اللّه» في كلِّ ما يقوم به، خصوصًا ما يتّصل بصلة الرّحم التي هي مِن صفات «الرّحمن الرحيم».

وكلَّما كان التّوجُّه مباشَر إلى الرّحمن الرّحيم بالطّلب والدّعاء، وليس إلى سواه، فسيترافق ذلك مع الشّعور بالتّذلُّل والضّعف: «وأنا عبدك الضّعيف الذّليل الحقير المسكين المستكين». كما جاء في دعاء كُميل.

هذا التّذلُّل للوالدَيْن الذي هو جوهر الإحسان إليهما، والبرّ بهما، هو من أهمّ مصاديق التّأسيس للمجتمع التّراحميّ الذي ينشده القرآن الكريم. فما جاء في الآيات، التي سبقت الإشارة إليها، يُفضي إلى تكوين وعي معرفيّ وسلوكيّ وأخلاقيّ لن يقتصر على الوالدَيْن فقط، بل سينتقل إلى المجتمع، مِن خلال ثقافة الاعتراف بالجميل، ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾[6]، وثقافة ضبط النّفس عن التّلفّظ بأيِّ إساءة ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ﴾[7]، واكتساب سلوك التّواضع والإحسان. وسيكون المجتمع

1- سورة المنافقون، الآية 8.

2- سورة فاطر، الآية 10.

3- سورة الإسراء، الآية 24.

4- محمّد بن يعقوب الكليني، الكافي، ج 5، ص 64.

5- المرجع نفسه، ج 5، ص 63.

6- سورة لقمان، الآية 14.

7- سورة الإسراء، الآية 23.

تراحميًّا كلّما انتشرت فيه علاقات الإحسان والقول الكريم وجناح الذّلّ من الرّحمة. وبهذا المعنى تكون ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾[1] الأُسريّة أساس «توادّهم وتراحمهم» الاجتماعيّة.

ومن منظور هذا الحرص القرآنيّ على صلة الرّحم، تلك الدّعوة إلى تدخل هذه «الصّلة» عند حصول شقاق بين الزّوجَيْن، ﴿ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ ﴾[2]، لا أيّ طرف آخر؛ لأنَّ مَن يتدخَّل مِنَ الأهل سيكون حريصًا على حلّ الشّقاق بما يحفظ كيان الأُسرة، وليس كما هي الحال اليوم في كثير من المجتمعات العربيّة والإسلاميّة، التي أُوكل أمر التّدخّل فيها لحلّ الشّقاق بين الزّوجَيْن لجمعيّات مدنيّة، أو لمرشدين اجتماعيّين أو نفسيّين لا علاقة لهم بأيِّ صلة رحم، ولا حتّى بأيّ قلق على مستقبل الأُسرة، أو حتّى بالحرص على استمرارها وتماسكها.

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾[3].

ولأنَّ ما ينشده القرآن هو هذا المجتمع التّراحميّ، تقوم الآيات بترتيب أولويّات ما ستكون عليه علاقات التّراحم في هذا المجتمع، ابتداءً بالوالدَيْن، ثُمَّ بالأقربين... ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾[4].

وتضيف سورة النّساء إلى ما سبق من ذي القربى واليتامى والمساكين: ﴿ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾[5].

وحتّى عندما يرغب الإنسان في الإنفاق، وتقديم المساعدة لِمَن يحتاجها، يطلب القرآن أنْ يكون هذا الأمر وفق الأولويّات نفسها؛ أي الوالدَيْن، ثُمَّ صلة

1- سورة الرّوم، الآية 21.

2- سورة النّساء، الآية 35.

3- سورة النّساء، الآية 35.

4- سورة البقرة، الآية 83.

5- سورة النّساء، الآية 36.

الرّحم: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾[1].

أي أنَّ الصّورة الواقعيّة عن هذا المجتمع التّراحميّ ستبدأ في الأُسرة بين الزوجَيْن ومع الوالدَيْن؛ لتنتقل بعدها إلى ذي القربى، أوّلًا (صلة رحم)، ولتتوسَّع بعد ذلك إلى اليتامى والمساكين وابن السّبيل، ثمَّ إلى الجار الأقرب فالأقرب.

ورُوِيَ عن الرّسول الأكرم ﷺ أنَّه قال: «ما زال جبريل يُوصِيني بالجار حتّى ظننتُ أنَّه سيورثه»[2]. وأنَّ «خير النّاس أنفعهم للنّاس»[3]، و«خدمة النّاس أفضل العبادات»، أَوْ ﴿ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ ﴾[4].

أي أنَّ تحقّق هذه العلاقات بالتّرتيب الذي جاء في آيات القرآن الكريم، مِنَ الأُسرة إلى الأقربين إلى الجيران، إلى النّاس، هو الأنموذج الذي يمكن أن يتوسَّع وينتشر في أيِّ مكان، ومع أيِّ أسرة، ومع أيِّ جيران؛ لتتكوَّن بذلك ثقافة التّراحم التي ينشدها القرآن للمجتمع الإنسانيّ. فحتّى الجار، الذي لا علاقة له بصلة الرّحم، لن يكون الجحيم (الآخر)، كما يراه سارتر والوجوديّون: «إنَّني ابتداءً من الآونة التي أشعر فيها أنَّ أحدًا ينظر إليَّ، أشعر أنّني سُلبتُ عن طريق النّظر إليَّ وإلى العالم، وإنَّ العلاقة بيننا والآخرين هي التي تخلق شقاءنا، إنَّ الآخرين هم الجحيم بعينه»[5].

كما أنَّ هذا الجار أو الآخر، ليس الذّئب، كما يراه الفيلسوف الإنكليزيّ «هوبس»، بل هو امتداد للعلاقات التّراحميّة وللإحسان مع الوالدَيْن ومع الأقرَبين، ومع باقي المجتمع. وما يُضفي المزيد مِنَ الحرص التّراحميّ على عمليّة الإنفاق، أنَّ اللّه سبحانه وتعالى جعل هذا الإنفاق في سبيله، وليس كما يبدو في ظاهر هذا العمل أنَّه في سبيل الآخر. لا بل هو في الوقت نفسه من أجل مَن يقوم به ﴿ وَمَا

1- سورة البقرة، الآية 215.

2- عبد الحميد بن هبة الله بن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، ط2، بيروت، دار إحياء الكتب العربيّة عيسى البابي الحلبي وشركاه، 1965م، ج 17، ص 8.

3- حسين البروجرديّ، جامع أحاديث الشّيعة، لا ط، قمّ، مطبعة المهر، 1410هـ ج 16، ص 175.

4- سورة النّساء، الآية 114.

5- راجع: جون ماكوري، الوجودية، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، العدد 58، 1982م.

تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ﴾[1]، والذي سيتّجه أيضًا إلى اللّه سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾[2].

إنَّ مثل هذا الرّبط بين الإنفاق، وجعله خيرًا للإنسان نفسه وتقرّبًا إلى اللّه، شديد الأهمّيّة في التّهذيب النّفسيّ للإنسان، وفي كمالاته المعنويّة، وفي تكوين الذّهنيّة التّراحميّة التي لا يرى الإنسان معها ذاته في ما يفعل، بل اللّه سبحانه وتعالى، ولا يرى أيّ فضل له على الآخر الذي يُحسن إليه. فيبدو أنَّه يُقدِّم خدمة لنفسه عندما يفعل الخير، بحيث لا يجب عليه أنْ يتباهى بما فعل. ورُبَّما هذا يُفسّر لماذا طلب سبحانه وتعالى ألّا يترافق هذا الإنفاق مع أيّ مَنٍّ قد يُشعر معه مَن يتلقّى العون أو المساعدة بأيِّ إحراج اجتماعيّ، أو معنويّ يُبطِل أصل الهدف من الإنفاق الذي هو في سبيل اللّه، والذي سيحصل بسببه المنفِق على الأجر الرّبّانيّ، لا المجتمعيّ، والذي سيُحقّق له أيضًا ما يحتاج إليه أيّ إنسان مِنَ السّكينة والاطمئنان. ﴿ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾. وهو بلا شكّ أهمّ من أيّ عائد مجتمعيّ، أو عرفان بالجميل.

وسنلاحظ كذلك، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ سيكون لهم أيضًا ﴿ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[3]؛ أي أنَّ مَن يُنفق في سبيل اللّه لن يكون عليه خوف أو حزن، تمامًا مثل مَن آمن وعمل صالحًا وأقام الصّلاة وآتى الزكاة. وسنلحظ هنا، أيضًا، كيف تمَّ بعد الإيمان، تقديم العمل الصّالح، على الصّلاة والزكاة، ومن مصاديق العمل الصّالح الإنفاق والبرّ والإحسان والقول الحَسَن... وقد يكون مفاجئًا مدى أهمّيّة العمل الصّالح وعلوّ شأنه، أنْ يطلب الإنسان العودة إلى الحياة بعد الموت، «لعلّه يعمل صالحًا»، كما جاء في القرآن الكريم: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾[4].

ومن اللّافت أيضًا، كيف ربط القرآن الكريم بين الإنفاق الذي هو فعل ماديّ، ومواصفات أخلاقيّة سلوكيّة (كظم الغيظ والعفو عن النّاس)، وعدَّ ذلك كلّه من

1- سورة البقرة، الآية 272.

2- سورة البقرة، الآية 110.

3- سورة البقرة، الآية 277.

4- سورة المؤمنون، الآيتان 99-100.

تصرّفات «المحسنين» الذين يحبّهم اللّه. ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1]. وهي من أُسُس مكارم الأخلاق التي يجب أن يتَّصف بها الإنسان «خليفة اللّه»، والتي بُعث الرّسول أصلًا من أجل إتمامها «إنَّما بُعثت لأتمّم مكارم الأخلاق»[2].

المجتمع التّراحميّ

إنَّ المجتمع الذي يبدأ بتعظيم حقّ الوالدَيْن، ويحرص على الإحسان والقول الحَسَن، حتّى إلى الجار البعيد، ليس هو المجتمع الذي يتصوّره، مثلًا، الفيلسوف الإنكليزيّ «توماس هوبز» (Thomas Hobbes) (1588م-1679م) أحد أكبر فلاسفة القرن السّابع عشر: «غابة مجهولة، تسكنها الوحوش المفترسة، إمَّا بالقوّة أو بالحيلة والمكر، والإنسان ذئب لأخيه الإنسان، والكلّ في حرب ضِدّ الكلّ، والواحد في حرب ضِدّ الجموع. الحياة إذًا مجال للقوّة الباطشة بالنّسبة إلى الأقوياء، وللخداع والمكر والتّحايل بالنّسبة إلى الضّعفاء»[3].

لقد كان التّوتّر بين الجماعة والفرد هو جوهر التّحديث والعلمنة التي شكّلت المجتمع الغربيّ الحديث، الذي يراه روسّو بداية تعاسة الإنسان، بسبب الصّراع على الموارد، والقوّة، والثّروة. «فقد باشر الإنسان الأوّل انحداره نحو الحياة المجتمعيّة مِن أجل الحماية والمنافع المتبادلة، وأظهر نمط علاقات معيَّنة يُعبّر عنها بكلماتٍ؛ مثل كبير وقويّ وضعيف وجبان وبطيء وشجاع وفقير وثريّ، وهي كلمات قائمة على التّفاوت والعلاقة التّصارعيّة التّنافسيّة»[4].

هذا المجتمع كما يراه هوبس أو روسّو، منفصل تمامًا عن أيّ بُعدٍ إلهيّ أو رحمانيّ أو تراحميّ. ولذلك، لن يكون سوى غابة وذئاب في القرن السّابع عشر، وستصبح الوحوش المفترسة فيه بعد القرن التّاسع عشر، هي وحوش التّنافس على

1- سورة آل عمران، الآية 134.

2 محمّد باقر المجلسيّ، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار، ج 68، ص 382.

3- إمام عبد الفتاح إمام، توماس هوبز فيلسوف العقلانيّة، القاهرة، دار الثّقافة للنّشر والتّوزيع، 1985م.

4- موقع الجزيرة، شريف مراد، يحيا الفرد ويسقط المجتمع، المسيرة المظلمة للفردانيّة في الغرب، 27-8-2021م: https://aja.me/rgvu78.

الثّروة والتّملُّك، وستكون الذّئاب فيه ذئاب الاستهلاك، والحروب على العالَم من أجل الثّروات والموارد. لكنَّ هذه الغابة المليئة بالوحوش، التي تحدَّث عنها هوبس، لن تختفي، بل ستكون في الوعي الغربيّ في القرن العشرين هي باقي شعوب العالم غير الغربيّ، في حين سيكون الغرب هو الحديقة المزدهرة بالتّمدُّن، التي تُهدِّد الغابة حضارتها وتمدّنها.

وكما قال «جوزف بوريل» (José Borrell) مُنسِّق السّياسة الخارجيّة للاتّحاد الأوروبّيّ، في 2022/10/18م، خلال افتتاح الأكاديميّة الدّيبلوماسيّة الأوروبّيّة: «إنَّ أوروبّا حديقة، لقد بنينا حديقة، أفضل مزيج مِنَ الحرِّيّة السّياسيّة والرّخاء الاقتصاديّ، والتّرابط الاجتماعيّ استطاعت البشريّة أن تبنيه، لكنَّ بقيّة العالم ليس حديقة تمامًا، بقيّة العالم هو أدغال... الأدغال يمكن أن تغزو الحديقة، وعلى البستانيِّين أن يتولّوا أمرها».

إنَّ المفاضلة التي يقوم بها مُنسّق السّياسة الخارجيّة الأوروبّيّة بين الغرب وباقي شعوب العالم، مبنيّة على أساس الحرّيّات السّياسيّة والرّخاء الاقتصاديّ، لا على أيّ معيار إنسانيّ، كما هي المفاضلة التي وضعها القرآن الكريم بين النّاس: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾[1].

وفي الحديث الشّريف: «لا فضل لعربيّ على أعجميّ، ولا أسود على أبيض إلّا بالتّقوى»[2].

وكما جاء في القول المأثور للإمام عليّ عليه السلام: «النّاس صنفان: إمّا أخ لك في الدّين، أو نظير لك في الخلق»[3].

والتّقوى هي الخشية مِنَ اللّه (اتّقوا اللّه)، وليست التّنافس على التّملُّك أو التّدافع مِن أجل الرّبح والسّيطرة. وعدم المفاضلة بين عربيّ وأعجميّ تحتاج إلى الحكم العادل، ﴿وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾[4].

ومِنَ المفارقة المهمّة، أنَّ هذا التّشدُّد القرآنيّ في صلة الرّحم، والحرص عليها،

1- سورة الحجرات، الآية 13.

2- محمّد الرّي شهريّ، ميزان الحكمة، ج 4، ص 3629.

3- عليّ بن أبي طالب، نهج البلاغة، شرح محمّد عبده، لا ط، بيروت، دار المعرفة للطّباعة والنّشر، لا ت، ج 3، ص 84.

4- سورة النّساء، الآية 58.

وعلى أولويّة ترتيبها في العلاقات والإنفاق، يتحوَّلان في سياسة العدل وإدارة الحكم إلى التّحذير مِن الانحياز العاطفيّ (الهوى) إلى صلة الرّحم نفسها، بما في ذلك إلى الوالدَيْن الذين سَبَق وتشدّد في البرِّ بهما، وفي عدم قول: «أفّ» لهما.

﴿ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ﴾[1].

﴿ لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾[2].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴾[3].

إنَّ عدم التّحيُّز إلى الوالدَيْن وإلى صلة الرّحم مِنَ الأقربين هو العدل الذي يفرض على المستخلَف عدم اتّباع الهوى؛ لأنَّ العدل هو أقرب للتّقوى، ﴿ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ ﴾[4].

ولأنَّ العدل هو الحكم بالحقّ بين النّاس، كانت «الخلافة في القرآن أساس للحكم»، ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ ﴾[5].

ولم يكن مِنَ الصّدفة أن يوضع العدل أصلًا ثانيًا من أصول الدّين؛ لأنَّ العدل في المسيرة الإنسانيّة وقيامها، على أساس القسط، هو الشّرط الأساسيّ لنموّ كلّ القيم الخيِّرة الأخرى، ومن دون العدل والقسط يفقد المجتمع المناخ الضّروريّ لتحرّك تلك القِيَم وبروز الإمكانات الخيّرة[6].

لقد بدأ التّأسيس لـ«نظريّة» المجتمع الرّحمانيّ الذي لا يُفاضل بين النّاس أو الأقوام على أُسُس عرقيّة منذ بداية الخلق. فقد وُصف إبليس بالرّجيم؛ لأنّه عدَّ

1- سورة سبأ، الآية 37.

2- سورة الممتحنة، الآية 3.

3- سورة النّساء، الآية 135.

4- سورة المائدة، الآية 8.

5- سورة ص، الآية 26.

6- محمّد باقر الصّدر، الإسلام يقود الحياة، ص 138 و142.

نفسه أفضل من آدم الذي خُلق من تراب، وهو خُلق من نار. ﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴾[1]، ﴿ قَالَ ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا ﴾[2]. بينما كان اعتراض الملائكة هو على ما سيفعله آدم ﴿ يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾[3]، وليس على العنصر الذي تكوَّن منه؛ أي التّراب.

ولهذا السّبب، فإنَّ معيار التّمييز الأساسيّ في القرآن هو العمل الصّالح، وليس تفاوت الجنس بين الذّكر والأنثى. ﴿ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾[4].

والتّمييز، كذلك، هو على أساس المواصفات الأخلاقيّة والسّلوكيّة؛ مثل الإيمان والصّدق والصبر والخشوع والتّصّدق والعفّة، وذكر اللّه... ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ ﴾[5]، و﴿ إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ وَٱلۡمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَا ﴾[6].

هذه المساواة في الجزاء على العمل الصّالح بين الذّكر والأنثى، وفي المغفرة والأجر العظيم، يبدو أنَّها تنسجم مع الرّواية القرآنيّة لسبب خروج آدم من الجنّة، بعدما «أغواه» الشّيطان ووسوس له، وليس (حواء) هي التي فعلت ذلك، فقال له: ﴿ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ﴾[7]، وذلك خلافًا للرّواية التّوراتيّة التي تُحمِّل المرأة وزر هذه الخطيئة. لتتحدَّث الآية بعد ذلك بخطاب المثنّى، عن المسؤوليّة في الاستجابة لوسوسة الشّيطان: ﴿ فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا

1- سورة الأعراف، الآية 12.

2- سورة الإسراء، الآية 61.

3- سورة البقرة، الآية 30.

4- سورة النّحل، الآية 97.

5- سورة الحجرات، الآية 11.

6- سورة الأحزاب، الآية 35.

7- سورة طه، الآية 120.

وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾[1].

ومن المعلوم، أنَّ الرّبط المسيحيّ للمرأة بالخطيئة الأصليّة، التي أبعدتها عن المقدّس، ناتج من تلك الرّؤية التّوراتيّة التي تقول: إنَّ حواء أغوت آدم بتناول التّفّاحة التي أخرجته مِنَ الجنّة. لكن تلك الرّؤية ليست كذلك في المنظور القرآنيّ، فهي تشير إلى استجابتهما معًا لإغواء الشيطان، في قوله تعالى: ﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا ﴾[2]، والخطاب هنا عن آدم وحواء. ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا ﴾[3]، ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾[4].

لقد كان العمل مُشتركًا (بالمثنّى) وليس بالمفرد؛ أي أنَّ الرّؤية القرآنيّة لا تبدأ باتّهام المرأة، ولا بدونيّتها، وهي ليست مصدر الخطيئة الأصليَّة؛ بل «هما» معًا الرّجل والمرأة، آدم وحواء، يتحمّلان بالتّساوي نتيجة ما فعلاه، فأُخرجا من الجنّة. وتلك نقطة افتراق أساسيَّة عن التّأسيس التّوراتيّ لدونيَّة المرأة[5]. وربَّما يتحمّل الرّجل قبل المرأة التي تبعته مسؤوليّة ما حصل، بعدما توجه الشّيطان إلى آدم: ﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾[6]، لتلتحق به حواء، فيتحوَّل الخطاب القرآنيّ إلى المثنى، كما سبقت الإشارة إلى ذلك: ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ ﴾[7].

ولعلَّ الهدف من هذه الرّواية، في الوقت نفسه، الإشارة إلى موقع الرّجل الذي يتقدَّم فيه على المرأة في تحمّل مسؤوليّة ما يمكن أن تصير عليه الأُسرة والمجتمع. فما حصل بعد استجابة آدم لإغواء الشّيطان هو «أكلا منها»؛ أي أنّ حواء تبعت آدم بعد إغوائه، وتلا ذلك هبوطهما معًا إلى الأرض؛ لتبدأ مرحلة جديدة من وجودهما

1- سورة طه، الآيتان 121-122.

2- سورة الأعراف، الآية 22.

3- سورة طه، الآية 121.

4- سورة البقرة، الآية 36.

5- راجع: طلال عتريسي، الجندر المخادع: مِن المرأة الضّحيّة إلى تفكيك المنظومة الأُسريّة، ط1، بيروت، جامعة المعارف، 2024م، ص 72.

6- سورة طه، الآية 120.

7- سورة طه، الآية 121.

في هذه الدّنيا، ﴿ قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ ﴾[1]، وهي مرحلة التّكليف والكدح والاختبار بين إمَّا شاكرًا وإمَّا كفورًا.

ويذهب محمّد باقر الصّدر في تفسير هذه التّجربة التي خضع لها آدم «بأنَّها كانت أوّل تكليف وُجِّه إليه بأنْ يُمسك عن شجرة معيَّنة ترويضًا للإنسان الخليفة ليتحكَّم في نزواته، ويكتفي مِن الاستمتاع بطيِّبات الدّنيا بالحدود المعقولة من الإشباع الكريم، ولا ينساق مع الحرص المحموم على المزيد من زينة الحياة الدّنيا ومتاعها وطيّباتها؛ لأنَّ هذا الحرص هو أساس كلّ ما شهده المسرح بعد ذلك من ألوان استغلال الإنسان للإنسان»[2].

الأحسن عملًا

لقد وضع اللّه عزَّ وجلَّ، من منظور رحمانيّته، مقياس «الأحسن عملًا»، وليس الأقرب رحمًا، أو الأكثر مالًا وثروة، وقد حثَّ النّاس على التّنافس في ما بينهم ضمن هذا المقياس الرّبّانيّ، من خلال التّسابق نحو العمل الصّالح والعمل الأحسن، ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ﴾[3].

وفي الإطار نفسه مِنَ التّوجُّه الرّحمانيّ، عَدَّ القرآن مِنَ بين «الأحسن عملًا» مَن يُنفق على الآخر، وليس مَن يكنز الذّهب والفضّة؛ إذ يقول تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴾[4]. وحتّى هذا الإنفاق سيكون من ضمن أولويّات صلة الرّحم، وصولًا إلى السّائلين ممَّن قد لا يعرفهم مَن يُنفق المال. فيكون الإنفاق سرًّا أو علانيّة، عملًا ممتدًّا بين الدّنيا والآخرة ولفاعليه ﴿ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴾[5]، بعد أن يُحدِّد القرآن الكريم الشّروط التي ستنطبق على البرّ، والأولويّات التي يجب أن يخضع لها:

1- سورة الأعراف، الآية 24.

2- محمّد باقر الصّدر، الإسلام يقود الحياة، ص 152.

3- سورة الملك، الآية 2.

4- سورة التّوبة، الآية 34.

5- سورة الرّعد، الآية 22.

﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾[1].

سنلاحظ في هذه الآية كيف يكون مبتدأ البرّ هو التّوحيد (الإيمان باللّه واليوم الآخر، والملائكة والكتاب والنّبيّين) ليبدأ بعد ذلك ترتيب الإنفاق: ذوي القربى، واليتامى، والمساكين، وابن السّبيل، والسّائلين، وفي الرّقاب، كبُعدٍ اجتماعيّ لوظيفة الإنفاق، في حين سيلي ذلك عودة إلى التّوحيد عمليًّا من خلال: الصّلاة وإيتاء الزّكاة.

أمَّا صفات هؤلاء النّاس الأخلاقيّة والسّلوكيّة فَهُم: الموفون بعهدهم إذا عاهدوا، والصّابرون في البأساء والضّرّاء وحين البأس. ولذلك، تخلص الآية إلى أنَّهم (الصّادقون والمتّقون)، وهم الذين ﴿ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ﴾[2].

والمتّقون، كما جاء في سورة البقرة، هُمْ الذين: ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[3]، وهم الذين يتّصفون في الوقت نفسه بصفات أخلاقيّة رحمانيّة أيضًا: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[4].

وللتّأكيد على أهمّيّة هذا البُعد الأخلاقيّ وأولويّته، يُعرّف القرآن الكريم الرُّسُل والأنبياء بصفاتهم الأخلاقيّة قبل أيّ صفة أخرى؛ فموسى ﴿ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴾[5]، وإسْمَاعِيلَ ﴿ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴾[6]، وَإِدْرِيسَ ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ

1- سورة البقرة، الآية 177.

2- سورة الرّعد، الآية 22.

3- سورة البقرة، الآية 3.

4- سورة آل عمران، الآية 134.

5- سورة مريم، الآية 51.

6- سورة مريم، الآية 54.

صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾[1]. وتتلخّص بعثة النّبيّ محمّد ﷺ بـ«إتمام مكارم الأخلاق».

كما ستكون هذه المواصفات الأخلاقيّة مطلوبة، أيضًا، للّذين سيقومون بمهمّة الاستخلاف التي أرادها اللّه للإنسان؛ فهم ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ۝٦٣ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ﴾[2]، وهم مَن يسعى للحياة الآخرة، ويخشى أن يكون مصيره جهنّم، وأن يضلّ سعيه في الحياة الدّنيا، ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ ﴾[3]، وهم المؤمنون الموحّدون ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ﴾[4]، وهم ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ﴾[5]، وهم الذين ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ ﴾[6] و﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴾[7].

إنَّ القرآن الذي يحرص على أُسُس تشكُّل المجتمع التّراحميّ، يؤكّد في الوقت نفسه على تجنُّب سلوكيّات وممارسات قد تؤذّي هذا المجتمع، أو تُسيء إليه. وهي سلوكيّات لم يلتفت إليها أيّ نظام اجتماعيّ، ولا أيّ نظريّة حول العلاقات الإنسانيّة عند أيّ مِنَ المفكّرين الغربيّين الذي أنتجوا آلاف الصّفحات عن المجتمع ونظريّاته، وعن الفرد والجماعة، وعن تشكّل الجماعات وانفراط عقدها، وعن الدّين ودوره وتأثيره...

لكنّهم لم يهتمّوا بمثل تلك السّلوكيّات التي يشير إليها القرآن الكريم، ويدعو إلى الامتناع عنها. ولعلَّ الدّين وحده هو من يهتمّ بمثل هذا النّوع من السّلوك الأخلاقيّ، الذي يُنظّم الالتزام به ما يُسمَّى اليوم العلاقات والحقوق المدنيّة

1- سورة مريم، الآية 56.

2- سورة الفرقان، الآيتان 63-64.

3- سورة الفرقان، الآية 65.

4- سورة الفرقان، الآية 68.

5- سورة الفرقان، الآية 72.

6- سورة القصص، الآية 55.

7- سورة الفرقان، الآية 67.

المتبادلة بين النّاس، في حين أنَّ علم الاجتماع نفسه، وحتّى باقي العلوم الإنسانيّة الغربيّة لم تتأسَّس إلّا على تلك القطيعة مع الدّين، التي رضيت أن يكون الفعل أخلاقيًّا، إذا كان يُحقِّق لِمَن يقوم به الرّضى أو الإشباع، من دون أيّ موجبات مسبقة تُحدِّد كيف يجب أن يكون عليه هذا السّلوك[1].

لقد دعا القرآن الكريم في هذا الإطار من تنظيم العلاقات الأخلاقيّة بين أفراد المجتمع على سبيل المثال، إلى عدم المسارعة إلى اتّهام الآخرين، وعدم إشاعة الفاحشة بين النّاس، وسوء الظّنّ، وصولًا إلى الامتناع عن الغيبة التي تُعدّ مِن أسوأ ما يمكن أن يقوم به الإنسان في المجتمع الذي يعيش فيه.

إنَّ مثل هذه الصّفات الأخلاقيّة والسّلوكيّة التّراحميّة لم تلتفت إليها أيّ مِنَ النّظريّات التي درست تشكُّل المجتمعات، حتّى التي فعلت ذلك في علوم الأنتروبولوجيا، فإنَّما فعلت ذلك ليس لدعوتها إلى مجتمع أفضل أو مجتمع تراحميّ، وإنَّما لوصف ما وجدته في مثل هذه المجتمعات مِن قِيَم وثقافة ومعايير اجتماعيّة.

وبما أنَّ منظور علم الاجتماع لم يهتمّ بما سيكون عليه المجتمع، ولم يطرح على نفسه أصلًا مثل هذه المهمّة، فإنَّ أيّ نظريّة بالتّأكيد لن تُفكّر في سلبيّات ما يمكن أن يحصل «إذا جاء فاسق بنبأ»، أو «إذا شاع الجهر بالسوء»، أو إذا انتشر «سوء الظن بين النّاس»، أو إذا اعتاد النّاس على «الغيبة» التي شبّهها القرآن الكريم، بأبشع ما يمكن تخيّل حدوثه، وهو نهش لحم الأخ الميّت.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴾[2].

﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴾[3].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[4].

1- راجع: طلال عتريسي، العلوم الإنسانيّة الغربيّة وليدة القطيعة الحداثيّة مع الدّين، بيروت، مجلّة جامعة المعارف، العدد4، 2022م.

2- سورة الحجرات، الآية 6.

3- سورة النّساء، الآية 148.

4- سورة النّور، الآية 19.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَـا ٱلَّذِيـنَ ءَامَنُـواْ ٱجْتَنِبُـواْ كَثِـيرًا مِّـنَ ٱلظَّـنِّ إِنَّ بَعْـضَ ٱلظَّـنِّ إِثْـمٌۖ وَلَا تَجَسَّسُـواْ وَلَا يَغْتَـب بَّعْضُكُـم بَعْضًـاۚ أَيُحِـبُّ أَحَدُكُـمْ أَن يَـأْكُلَ لَحْـمَ أَخِيـهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُـوهُۚ وَٱتَّقُـواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَـوَّابٌ رَّحِيـمٌ ﴾[1].

إنَّ مثـل هـذا الحـرص القرآنـيّ على تفاصيـل سـلوكيّة أخلاقيّـة ينطلـق مـن معرفـة عميقـة بالنّفـس الإنسـانيّة التي سـتقوم بمثـل هـذه السّـلوكيّات، التي يُمكـن أن تصـدّع المجتمـع التّراحمـيّ الأوسـع، بمـا فـي ذلـك مجتمـع «صلـة الرّحـم». ولهـذا، يذكـر اللّـه سـبحانه وتعالـى هـذه السّـلوكيّات مـن ضمـن مواصفاتـه الرّحمانيّـة، ﴿ لَّا يُحِـبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْـرَ بِٱلسُّـوٓءِ ﴾[2]، التي يجـب أن يلتـزم بهـا «خليفـة اللّـه» ويتجنّبهـا فـي طريقـه التّكاملـيّ إلـى الاسـتخلاف.

فـي هـذا المجتمـع لا ينبغي للمسـتخَلف في مهمّتـه الربّانيـة، ﴿ إِنِّى جَاعِـلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَـةًۖ ﴾[3]، أن يمشـي فـي الأرض مرحًـا، أو أنْ يختـال، أو يتفاخـر علـى النّـاس، أو حتّـى يرفـع الصّـوت، فهـذا كلّـه ليـس مـن مواصفـات «الرّحمـن الرّحيـم»، الـذي ﴿ لَا يُحِـبُّ كُلَّ مُخْتَـالٍ فَخُـورٍ ﴾[4]. وعليـه، أن يفـي بالعهـد[5]، وأن يغـضّ بصـره[6]، وألَّا يُـرّوج لمَـا لا يتأكّـد مـن صحّتـه، ﴿ وَلَا تَقْـفُ مَـا لَيْـسَ لَـكَ بِـهِۦ عِلْـمٌۚ ﴾[7]. ومثـل هـذه المواصفـات الأخلاقيّـة والسّـلوكيّة، يجـب أن يتحلّـى بهـا الإنسـان فـي أيّ مـكان، ومـع أيّ جماعـة يعيـش معهـا، وفـي أيّ علاقـة مـع الآخـر.

لا يكتفي، إذًا، المجتمـع التّراحمـيّ بالتّوحيـد. نعـم، هـو شـرط أساسـيّ، ولكنّـه غيـر كافٍ، وسـيحتاج هـذا التّوحيـد إلـى الإنفـاق فـي أبعـاده الرّحميّـة والاجتماعيّـة، وإلـى مواصفـات أخلاقيّـة وسـلوكيّة؛ مثـل الوفـاء بالعهـد والصّـدق والصّبـر والعفـو، مثلمـا لا يكتفـي القـرآن الكريـم بالكَلَـم الطّيّـب الـذي يحتـاج إلـى العمـل الصّالـح ليرفعـه، ولا

1- سورة الحجرات، الآية 12.

2- سورة النّساء، الآية 148.

3- سورة البقرة، الآية 30.

4- سورة لقمان، الآية 18.

5- ﴿ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾ (سورة الإسراء، الآية 34).

6- ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ ﴾ (سورة النّور، الآية 31).

7- سورة الإسراء، الآية 36.

يكتفي في الوقت نفسه بإيمان الذين يقولون ما لا يفعلون. ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾[1].

كما أنَّ المجتمع التّراحميّ الذي يريده القرآن الكريم لن يقتصر على العمل الصّالح، والإنفاق، وبرّ الوالدَيْن، والحكم بالعدل، والوفاء بالعهد والصّبر، والتّواضع، والعفو... بل سيذهب إلى منع ما يمكن أن يُسيئ إلى هذا التّكوين التّراحميّ المجتمعيّ. ولعلَّ هذه النّقطة ستكون مثار جدال ونقاش واسع حول الحرِّيّات الفرديّة والضّوابط المجتمعيّة، التي أشرنا إليها في بداية هذا البحث.

فقد طلب القرآن، على سبيل المثال، الامتناع عن لعب القمار (المَيْسِر) وعن شرب الخمر؛ لأنَّهما سيؤدّيان إلى وقوع «العداوة والبغضاء بين النّاس»، وهي ليست من صفات المجتمع التّراحميّ. ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾[2]. كما أنهما سيقفان حائلًا أمام العبادة (ذكر اللّه والصّلاة)، وهما هدف الوجود الإنسانيّ ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾[3].

ويعود سبب هذا المنع إلى الأصول نفسها التي أسَّس لها القرآن الكريم في خلافة الإنسان، وفي بناء المجتمع التّراحميّ؛ «فالجماعة البشريّة التي تتحمَّل مسؤوليّة الخلافة على الأرض إنَّما تُمارس هذا الدّور بوصفها خليفة عن اللّه. ولهذا، فهي غير مخوَّلة أن تحكم بهواها، أو باجتهادها المنفصل عن توجيه اللّه سبحانه وتعالى؛ لأنَّ هذا يتنافى مع طبيعة الاستخلاف. وإنَّما تحكم بالحقّ وتؤدّي إلى اللّه أمانته، بتطبيق أحكامه على عباده وبلاده. وبهذا، تتميَّز خلافة الجماعة بمفهومها القرآنيّ والإسلاميّ عن حكم الجماعة في الأنظمة الدّيمقراطيّة الغربيّة، فإنَّ الجماعة في هذه الأنظمة هي صاحبة السّيادة... وهي ليست مسؤولة بين يدي أحد... بل يكفي أن تتَّفق على شيء، ولو كان مخالفًا لمصلحتها ولكرامتها عمومًا...»[4].

تختلف هذه النّظرة القرآنيّة التي تمنع بعض أنواع التّصرّفات، التي لا تتَّفق مع طبيعة العلاقات في المجتمع التّراحميّ، عن تلك التي بلغتها التّجربة الغربيّة التي

1- سورة الصّف، الآية 2.

2- سورة المائدة، الآية 91.

3- سورة الذّاريات، الآية 56.

4- محمّد باقر الصّدر، الإسلام يقود الحياة، ص 136-137.

جعلت من تعظيم حرّيّة الفرد (الفردانيّة) وما يرغب القيام به أولويّة لا تقبل أيّ منع، ولا حتّى أيّ وجوب مسبَق لها، سواء أكان دينيًّا أم اجتماعيًّا. وما يحصل عليه الفرد من دون ألم هو الصّواب، وهو الأخلاقيّ وهو العقلانيّ، «بحيث مثّلت النّزعة الفردانيّة، التي بدأت على هامش الحداثة الغربيّة، التّوجّه الأكثر صعودًا واستمرارًا طوال التّاريخ الغربيّ الحديث»[1].

وستتحوّل الفردانيّة إلى تأليه الإنسان «الذي ستكون ذاته هي المرجع النهائيّ لكلّ أشكال المعرفة، ولكلّ المواقف والقرارات، استنادًا إلى لاءات أربعة هي:

- لا سلطة فوق سلطة الذّات.
- لا سعادة إلّا من خلال الذّات.
- لا قيمة أخلاقيّة إلّا من خلال تحقيق منافع الذّات.
- لا حقيقة إلّا من خلال معرفة الذّات.

فأصبح الإنسان، من وجهة نظر الفردانيّة والذّاتانيّة، المقدّس الأوحد في الوجود، لا شيء يعلو رأيه وحرّيّته وسلطته وقراره، فهو صانع القرار وصانع الحقيقة. ولم يعد ثمّة حاجة إلى استنزال التّشريع من السّماء أو أخذه من رجال الكنيسة؛ بل كلّ ذلك يجب أن يعود إلى الإنسان وحده»[2]. وكأنّ ما حصل في التّجربة الغربيّة كان مثابة هبوط من الإنسانيّة إلى الفردانيّة، كما كان هبوط آدم إلى الأرض.

ومع مثل هذا التّعظيم للفردانيّة، التي لا يجب أن تصطدم رغباتها بأيٍّ منع أو معوّقات، مهما كانت طبيعتها دينيّة أو اجتماعيّة، ومع عدم الحاجة إلى أيّ تشريع سماويّ يُنظِّم سلوك الإنسان، كان من الطّبيعيّ ألّا يُقبل ما يدعو إليه القرآن الكريم من طلب أو نهي أو أمر، فهذا كلّه لا يتطابق، ولا ينسجم مع فلسفة الفردانيّة ونفعيّتها، ومع التأليه الذي بلغته في التّجربة الحداثيّة الغربيّة. ولهذا السّبب، سيكون الاعتراض على مفاهيم المنع أو النّهي القرآنيّة، من منطلق هذا «التأليه» الذي بلغته الفردانيّة، التي لا شأن لها بـ«التّوادّ والتّراحم» في حين أنّ مثل هذا المنع، هو في

1- موقع الجزيرة، شريف مراد، يحيا الفرد ويسقط المجتمع، المسيرة المظلمة للفردانيّة في الغرب، 2021/8/27م: https://aja.me/rgvu78.

2- صدر الدّين القبانجيّ، الأسس الفلسفيّة للحداثة: دراسة مقارنة بين الإسلام والحداثة، لا ط، بيروت، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلاميّ، 2011م، ص 56 و67 و69.
راجع أيضًا: طلال عتريسي، العلوم الإنسانيّة الغربيّة وليدة القطيعة الحداثيّة مع الدّين، بيروت، مجلّة جامعة المعارف، العدد4، 2022م.

الوقت نفسه الوجه الآخر للقِيَم الأخلاقيّة، التي أمر القرآن أيضًا بالتّحلّي بها؛ مثل البِرِّ وصلة الرّحم، والإحسان، والوفاء بالعهد، والتّواضع...

إنَّ الاختلاف في ظاهره هو حول حرّيّة الفرد، لكنّه في الجوهر هو حول «المعنى»، وحول الغاية من وجود الإنسان، هل هو «خليفة اللّه» وما تفترضه هذه الخلافة من سلوكيّات يُحدّد ماهيّتها، وقبولها ورفضها كتاب الهداية إلى هذه الخلافة (القرآن الكريم)، أم أنَّ هذا الوجود لا وظيفة له أبعد مِن إشباع الرّغبات والحاجات في هذه «الحياة الدّنيا». ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾[1].

ومن هذا المنظار، إنَّ ما تريده الأكثريّة ليس بديهيًّا في المنظور القرآنيّ، ما لم يتوافَق مع مكوّنات المجتمع التّراحميّ الإنسانيّ، وما لم يعوّق ما تريده هذه الأكثريّة من تشكُّل هذا المجتمع، أو حتّى تُسيئ له بعد تشكّله.

إنَّ القرآن يهدف من خلال بعض القيود على حريّة الإنسان، إلى تطوير كمالاته النّفسيّة والمعنويّة التي ستبني شخصيّته التّراحميّة وتأخذ بيده في طريق الاستخلاف والعبوديّة. وتهدف هذه القيود إلى ترويض الرّغبات وتهذيبها لمنع طغيانها وهيمنتها على الإنسان. هذا في حين يهدف الغرب في تجربته الحداثيّة إلى رفع كلّ القيود عن هذه الحرِّيّة، لتحقيق كلّ ما يرغب به الإنسان، حتّى من دون أيّ سؤال عن كيفيّة تحقُّق هذه الرّغبات.

«لقد نشأت التّصوّرات الغربيّة الفلسفيّة والاجتماعيّة حول علاقة الفرد بالمجتمع مِن تحوّلات وتجارب مجتمعيّة؛ مثل الثّورات والحروب والهجرات من الأرياف إلى المدن، وتغيُّر أنظمة حكم، وتبدُّل في أحوال الأُسرة والمعيشة وغير ذلك. فكانت، على سبيل المثال، سيرورة الحداثة، والثّورة الفرنسيّة، وظهور المجتمع الصّناعيّ، والمدينة والمجتمع الحديث، شروطًا موضوعيّة لفَهْم السّياق العامّ لنظرة السّوسيولوجيا الكلاسيكيّة إلى علاقة الفرد بالمجتمع»[2].

أمّا من المنظور الدّينيّ، فقد جرى التّأسيس لهذه العلاقة التّراحميّة بناءً على رؤية وقِيَم سابقة على تكوّن المجتمعات. بمعنى أنَّها لم تكن وليدة التّجربة، أو

1- سورة المؤمنون، الآية 37.

2- محمّد ياقين، الفرد والمجتمع في السّوسيولوجيا الكلاسيكيّة، نصوص مختارة، سلسلة المعارف السّوسيولوجيّة 1، الرّباط، منشورات دار نشر المعرفة، 2020م.

التحـوّلات السياسـيّة، أو العمرانيّـة، أو المدينيّـة، وإنَّمـا كانـت وليـدة المعرفـة الإلهيّـة بالمصلحـة الإنسـانيّة.

ويمكـن أن نقـارن مـدى سـموّ هـذه القِيَـم الإلهيّـة فـي تنظيـم العلاقـة بيـن الفـرد والمجتمـع، وفـي طبيعـة المجتمـع «التّراحميّ» الـذي تريـده العـزّة الإلهيّـة، مـع تجربـة الغـرب الحداثيـة التـي أنتجـت مجتمعًـا يُعـدّ الآخـر فيـه هـو الجحيـم، والأُسـرة هـي مـكان للصّـراع والتّنافـس علـى السّـلطة، والأقـوى يلتهـم الأضعـف، وتملّـك الثّـروة والنّفعيّـة عبـادة بديلـة عـن الدِّيـن.

وقـد صـار المحلّلـون النّفسـيّون الآن يملـؤون الفـراغ الـذي خلّفـه الكهنة والقساوسـة، مسـتخدمين أسـاليب علاجيّـة فـي مواجهـة «إحسـاس عـامّ بالهشاشـة والعزلـة يمكـن اسـتغلاله والتّلاعـب بـه بسـهولة»[1].

لقـد تحوّلـت بذلـك النّزعـة الفردانيّـة التـي خلقـت الغـرب الحديـث اللّيبراليّ، كمـا نعرفـه اليـوم، «إلـى وحـش منفلـت لا عقـال لـه، وقـد حطّمـت فـي طريقهـا جميـع شـبكات الأمـان والتّضامـن الاجتماعـيّ والفعاليّـة السياسـيّة، وخلقـت فـي المقابـل شـعورًا مؤلمًـا وحـادًا بالخـوف والعزلـة والهشاشـة، كتتويـج تراجيـديّ لمسـيرة الفردانيّـة الغربيّـة»[2].

إنَّنـا أمـام منطقَيْـن متعارضَيْـن ومتباعدَيْـن حـول الفـرد والمجتمـع، وحـول هـدف الإنسـان مِنَ الوجـود، وحـول التّعامـل مـع الرّغبـات والأهـواء، بيـن مَـن يريـد أن يُطلـق لهـذه الأهـواء العنـان، ومَـن يريـد أن يُخضعهـا لنظـام مِـنَ الضّبـط والتّوجيـه والسّـيطرة. بيـن مَـن يـرى أنَّ علـى المجتمـع تنفيـذ رغبـات مـا يريـده مجمـوع الأفـراد، بغـضّ النّظـر عـن طبيعـة هـذه الرّغبـات، وتصـوُّر إلهـي لمجتمـع يجـب علـى الأفـراد فيـه أن يتحلّـوا بمواصفـات تليـق بخلافتهـم الإلهيّـة.

وقـد تحـدَّدت صفـات هـذا المجتمـع التّراحميّـة مسـبقًا، ولـم تكـن نتـاج تجـارب الأفـراد عبـر السّـنين. مـا يعنـي أنَّ هـذه السّـلوكيّات والصّفـات التّراحميّـة الإنسـانيّة

1- موقـع الجزيـرة، شـريف مـراد، يحيـا الفـرد ويسـقط المجتمـع، المسـيرة المظلمـة للفردانيّـة فـي الغــرب، 2021/8/27م: https://aja.me/rgvu78.

2- زيجمونـت باومـان، الخـوف السـائل، الشـبكة العربيـة للأبحـاث والنشـر، ترجمـة حجـاج أبـو جبر، تقديـم هبـة رؤوف عـزت، ط1، بيـروت، لا ناشـر، 2017م، ص 24. وكذلـك: شـريف مـراد، المصـدر نفسه .

للعلاقات بين أفراد المجتمع لا يجب أن تتغيَّر أو تتبدَّل، طالما أنَّ مهمّة الإنسان الاستخلافيّة لا تزال باقية ومستمرّة حتّى يرث اللّه الأرض ومَن عليها.

قيل لأحد الحكماء: إنَّ فلانًا يمشي فوق الماء.

فقال: هذا غير مهمّ، فلوح الخشب يطفو فوق الماء.

فقالوا: إنَّ فلانًا يطير.

فقال: هذا غير مهمّ، إنَّ الذباب أيضًا يطير.

فقالوا له: إذًا، ما المعجزة؟

فقال: المعجزة هي أنْ تمشي بين النّاس، وتصبر على أذاهم، ولا تفقد مبادئ الأخلاق؛ فلا تكذب، ولا تسرق، ولا تخون، ولا تغشّ، ولا تغتاب، ولا تكسر قلوبهم، ولا تتدخَّل في حياتهم ولا في بيوتهم.

المعجزة الحقيقيّة هي أن تكون إنسانًا.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

المصادر والمراجع باللغة العربيّة

- ابـن أبـي الحديـد، عبـد الحميـد بـن هبـة اللّـه، شـرح نهـج البلاغـة، تحقيـق محمّـد أبـو الفضـل إبراهيـم، ط2، بيـروت، دار إحيـاء الكتـب العربيّـة عيسـى البابـي الحلبـي وشـركاه، 1965م.
- ابـن أبـي طالـب، عليّ، نهـج البلاغـة، شـرح محمّـد عبـده، لا ط، بيـروت، دار المعرفـة للطّباعـة والنّشـر، لا ت.
- باومـان، زيجمونـت، الخـوف السـائل، الشـبكة العربيـة للأبحـاث والنشـر، ترجمة حجـاج أبـو جبـر، تقديـم هبـة رؤوف عـزت، ط1، بيـروت، لا ن، 2017م.
- البروجرديّ، حسين، جامع أحاديث الشّيعة، لا ط، قمّ، مطبعة المهر، 1410هـ.
- الرّي شهريّ، محمّد، ميزان الحكمة، ط1، بيروت، دار الحديث، 1416هـ.
- الصّـدر، محمّـد باقـر، الإسـلام يقـود الحيـاة، لا ط، طهـران، وزارة الإرشـاد الإسـلاميّ، 1403هـ.
- ـــــــ، خلافة الإنسان، لا ط، بيروت، جمعيّة المعارف الإسلاميّة الثّقافيّة، 2011م.
- عبـد الفتـاح إمـام، إمـام، تومـاس هوبـز فيلسـوف العقلانيّـة، لا ط، القاهـرة، دار الثّقافـة للنّشـر والتّوزيـع، 1985م.
- عتريسي، طـلال، الجنـدر المخـادع: مِـن المـرأة الضّحيّـة إلـى تفكيـك المنظومـة الأُسـريّة، ط1، بيـروت، جامعـة المعـارف، 2024م.
- ـــــــ، العلـوم الإنسـانيّة الغربيّـة وليـدة القطيعـة الحداثيّـة مـع الدّيـن، بيـروت، مجلّـة جامعـة المعـارف، العـدد4، 2022م.
- غولدنـر، ألفـن، الأزمـة القادمـة لعلـم الاجتمـاع الغربـيّ، ترجمـة عليّ ليلـة، لا ط، القاهـرة، المجلـس الأعلـى للثّقافـة، 2009م.
- فيليـب، كابـان، علـم الاجتمـاع مـن النّظريّـات الكبـرى إلـى الشّـؤون اليوميّـة، ط1، سـوريا، دار الفرقـد، 2010م.
- القبانجيّ، صـدر الدّيـن، الأسـس الفلسـفيّة للحداثـة: دراسـة مقارنـة بيـن الإسـلام والحداثـة، لا ط، بيـروت، مركـز الحضـارة لتنميـة الفكـر الإسـلاميّ، 2011م.

- الكليني، محمّد بن يعقوب، الكافي، صحّحه وعلّق عليه عليّ أكبر الغفّاري، لا ط، طهران، دار الكتب الإسلاميّة، 1365هـ.ش.
- ماكوري، جون، الوجودية، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد58، 1982م.
- المجلسيّ، محمّد باقر، بحار الأنوار الجامعة لدُرر أخبار الأئمّة الأطهار، ط3، بيروت، دار إحياء التّراث العربيّ، 1983م.
- واحك، مراد، من مثقّف الحداثة إلى مثقّف السّيولة عند زيغمونت باومن، مجلّة مقاربات فلسفيّة، الجزائر، جامعة خميس مليانة، مجلّد 11، العدد الأوّل، 2024م.
- ياقين، محمّد، الفرد والمجتمع في السّوسيولوجيا الكلاسيكيّة، نصوص مختارة، سلسلة المعارف السّوسيولوجيّة 1، الرّباط، منشورات دار نشر المعرفة، 2020م.

المصادر والمراجع باللغة الأجنبيّة

- Bourdieu, Pierre, Questions de la sociologie, ed. de Minuit, Paris, 1984.

المصادر والمراجع الإلكترونيّة

- موقع الجزيرة، شريف مراد، يحيا الفرد ويسقط المجتمع، المسيرة المظلمة للفردانيّة في الغرب، 2021/8/27م: https://aja.me/rgvu78